(٧)

الوثن الرابع: غلبة الأقوال على الأفعال

إن من أبرز الأوثان التى ينبغى علينا مواجهتها والقضاء عليها فى مجتمعنا المعاصر هو غلبة الأقوال على الأفعال فى أحيان كثيرة؛إذ يكثر بين المصريين فى كافة طبقاتهم ومستوياتهم الاجتماعية وفئاتهم الوعود القولية وخطاب التطمين والإجادة والإتقان، والحب والتعاون، والإرتقاء فى الأداء سواء كان فى مجال الزراعة أو الصناعة أو حتى فى مجالات البحث العلمى. إن مجتمعنا يعيش على الكلام و«كله تمام» على صعيد الخطاب النظرى فى مجالات الحياة!؛ ففى مجال السياسة نحن نعيش عصر الديموقراطية والحرية والتعددية السياسية والأمل فى مستقبل سيتم فيه تحديث وإصلاح كل الأحوال السياسية!! وفى مجال الاقتصاد نحن نعيش عصر الانفتاح والرأسمالية الوطنية التى تفتح كل فرص العمل أمام الشباب وتساعد فى تنمية كل جوانب الحياة على أرض مصر ونحن يحدونا الأمل فى نقله اقتصادية نوعية حيث يعدنا المسئولون بالرخاء القادم لا محالة!!

وفى مجال التعليم والبحث العلمى دومًا فى حالة استنفار للتحديث وتغيير المناهج وتطوير كافة مراحل التعليم للوصل إلى آفاق العالمية

ومواكبة كل التطورات الحديثة والمستحدثة!! ولدينا بالطبع عبر خطاب التفاؤل والأمل القوة البشرية اللازمة لهذا التحديث والقادرة على قيادته واستمرار عملية التطوير والتحديث، ولدينا الجامعات التى تزداد يومًا بعد آخر والتى يعدنا رؤسائها بأن التطوير قادم وأننا نقف على أعتاب مرحلة جديدة ستصبح فيها هذه الجامعات من الجامعات العالمية المرموقة!!

أما فى مجال الزراعة والصناعة فحدث ولا حرج؛ فنحن سنصل فى أقرب وقت للاكتفاء من الغذاء وسيكون لدينا الفائض الذى سنصدره من كافة أو معظم المحاصيل ولكم ازدادت مساحة الأراضى المستصلحة، ولكم طورنا المحاصيل واستحدثنا منها الكثير والكثير!! وهكذا الحال فى الصناعة، فقد حدثنا المصانع القائمة وأنشأنا مئات غيرها وكل يوم هناك افتتاحات لمصانع ومزارع جديدة!!

وحينما يقرأ المصرى هذا الخطاب النظرى ويسمعه عبر وسائل الإعلام المقروءة المسموعة والمرئية يتخيل نفسه وقد أصبحت حياته خالية من المشاكل، وينام قرير العين، وما أن يستيقظ فى الصباح حتى يجد نفسه فى خضم المشاكل، فلا فرص عمل فى مصنع أو مزرعة، ولا جودة فى منتج من المنتجات، ولا طرق جيدة وممهدة رغم كل ما ينفق عليها، ولا شوارع قادرة على استيعاب حركة المرور، ولا تنظيم لهذه الحركة، من تخرجوا من الجامعة غير مؤهلين للعمل، وإن كانوا مؤهلين فلا مجال لأن يعمل بمؤهله.. الخ.

ذلك حالنا الذى لم يعد يخفى على أحد منا، حاكمًا كان أو محكومًا، مثقفًا كان أم عاملًا، فقيرًا كان أو غنيًا، شابًا كان أو كهلًا، فتى كان أو

فتاة. إننا نقر بأن ما نقرأه وما نقوله وما نسمعه صباح مساء يختلف عن ما نراه فى واقع الحال من أفعال على أرض الواقع. لقد تربينا على العيش بين الكلمات وأدمنا الكلمات المعسولة الفضفاضة ذات المغزى التفاؤلى المخدر، أدمنا أن نؤجل المشكلات أو نحلها مؤقتًا عبر الكلمات والخطط النظرية الفضفاضة للإصلاح. وكم كان نزار قبانى شاعر العربية المعاصر الشهير بليغًا فى التعبير عن هذا المرض الموجع فى المجتمعات العربية حينما قال «مقتلنا يكمن فى لساننا ـ فكم دفعنا غاليًا ضريبة الكلام». إننا أدمنا «الكلام الكبير» على حد تعبير طارق حجى الذى صاح قائلًا: إن من أوجب واجبات من يهمه تصويب مسار العقل المصرى أن يقوم بإيقاظ هذا العقل وينهره بشدة أمام ظاهرة اتسامه بعلة «الكلام الكبير»؛ ولقد حاول ذلك كثيرًا فيلسوفنا الراحل زكى نجيب محمود حينما حذر من سيادة اللفظ والكلام على لغة الأداء والأفعال، والانفصام بين هذا وذاك؛ إذ ينبغى أن ما يقال فى لغة «الخطاب النظرى» لا بد أن يقابله أى شىء محدد فى «الواقع المادى» وإلا فقدت الكلمات فى مجالات الحياة المختلفة اقتصادية كانت أو اجتماعية أو سياسية أو علمية، مغزاها ولا تصبح ذات صدى، ولا مصداقية. ولعل سائل يسأل: كيف نعالج أنفسنا من هذا المرض وكيف نتخلص من ظاهرة الكلام الكبير الذى لا يصدقه واقع؟

إن العلاج ببساطة يتلخص فى ضرورة أن نزن الكلام بميزان الأفعال، وأن لا نستخدم إلا ألفاظًا تطابق وقائع، وأن لا نصف إلا ما هو موجود، وكل ذلك لن يتأتى ولن يمتلكه الإنسان المصرى خاصة والعربى عامة إلا إذا تخللت حياته الثقافة العلمية، لأن هذه الثقافة العلمية التى تحدثنا

عن ضرورة استيفائها وتنميتها فى البيئة الاجتماعية المصرية وكذلك العربية، هى التى ستنقلها بالضرورة على حد تعبير أستاذنا د/ زكى نجيب محمود «من حضارة اللفظ إلى حضارة الأداء» وإذا كان عماد هذه الثقافة العلمية هو البحث العلمى منهجًا ونتائج، فإن هذا البحث العلمى واتباع خطواته وتُمثل أسسه وآلياته هو ما سنخرج بواسطته «من دنيا اللغة إلى دنيا الأشياء».

وبالطبع فإن هذا يقودنا إلى قضية قلة الإنفاق على البحث العلمى، ذلك الإنفاق الذى لا يتعدى لدى الحكومات العربية ٠,٣٪ بالمائة، وهذه نسبة مزرية ومتدنية إلى الحد الذى يجعل من باحثينا العلميين يهربون من المعاهد العلمية والبحثية العربية إلى دول العالم المتقدمة، وهو نفسه الذى يجعل من يبقى منهم هنا يكتفى بتكرار واجترار أبحاثًا علمية سابقة مكتفيًا بثقافة التكرار والاجترار غير قادر على خوض غمار الإبداع العلمى الذى سيجعله حتمًا يلتزم باللغة الكمية ـ الأدائية أى التى تؤدى أو تشير إلى وقائع محددة وتستخدم القياس الكمى الذى هو قمة اللغة العلمية المطلوبة، تلك اللغة الموضوعية التى لابد أن نكتسبها ونجعلها هى «اللغة» العلمية بألف ولام التعريف، وأن نستخدمها فى كل مجالات البحث والحياة العملية، وإذا ما تم ذلك بين النخبة «الباحثة» و«العالمة» و«المثقفة» علميًا ستنتشر عبرهم بين مواطنيهم ويتحولون شيئًا فشيئًا من مستخدمين للغة خطابية وصفية بوهيمية غامضة ملتبسة لا يصدقها واقع، إلى مستخدمين للغة علمية مؤدية إلى وقائع مادية، ومعبرة عن حقائق محسوسة ملموسة.

إن من شأن سيادة هذا النمط اللغوى الأدائى ليس فقط العلاج من

الانفصام السائد لدينا بين الأقوال والأفعال، وإنما من شأنه أيضًا أن يعالج لدينا أوجه نقص أخرى انتشرت فى المجتمع وسببت الخلافات والمشاحنات بين أفراده مثل خلط المفاهيم وعدم وضوحها فى أذهان مستخدميها، ذلك الخلط الذى جعلنا نخلط الدين بالسياسة فنتصور أن حل مشكلاتنا سيكون بالتدين قائلين بكل بساطة «الإسلام هو الحل»! والحقيقة هى أن الإسلام دين عظيم قد يكون به حلولًا لمشكلات عديدة لكن هذه الحلول يقدمها الناس حسب ما يعيشونه وحسب ما يطرحه عليهم عصرهم من قضايا سياسية واقتصادية تتجدد دائمًا وتتطلب الاجتهاد والتطور من علماء السياسة المتخصصين فيها، وهو ذات الخلط الذى جعلنا نتحدث عن القرآن وكأنه كتاب «علم»، والحقيقة أنه إذا كانت بعض الآيات القرآنية تلقى أضواء أو تلمح إلى بعض الحقائق العلمية، فإن تفسير القرآن وآياته على ضوء هذه النظريات العلمية مسألة فى غاية الخطورة؛ فالنظريات العلمية ليست حقائق ثابتة، بل هى قابلة للتغيير والتطوير والتعديل حسب التطورات العلمية وتجدد آليات البحث العلمى ومن ثم فالربط بين فهم الآيات الكريمة وبين مثل هذه النظريات القابلة للكسر والتعديل يعنى ربط المطلق (القرآن) بالنسبى (العلم). وهذا فيه ما فيه من الخطر على الدعوة الإسلامية والفهم الحقيقى لآيات القرآن الكريم.

وإذا كانت هذه مجرد أمثلة على أنماط الخلط والغموض فى المفاهيم اللغوية الشائعة، فإن مثيلاتها فى حياتنا العلمية والعملية يفوق الحصر. ولذا وجب التحول إلى اللغة العلمية الدقيقة التى لا يتناقض فيها اللفظ مع الشيء، بل دائمًا ما يستخدم اللفظ أى لفظ دالًا على شىء ما قابل للقياس والفهم الواضح.